إدوارد سعيد ومشكلة التأخر في العالم العربي

الكلمات المفتاحية
(ادوارد سعيد، مشكلة التأخر، العالم العربي)

م.م. عدي حسن مزعل

جامعة واسط/ كلية الآداب/ قسم الفلسفة.

Audayhassan_m@yahoo.com

Edward Said And The Problem Of Retardation In The Arabian World

Key words
(Edward Said , proplem of retardation , Arabian world)

A.L. Audy Hassan Mezael

University of Wasit
College of Arts

Department of philosophy

Audayhassan_m@yahoo.com

إدوارد سعيد ومشكلة التأخر في العالم العربي

عبارة موحية تلك التي تطالع قارئ ادوارد سعيد(١٩٣٥-٢٠٠٣) في دراسته (التمنع، التجنب، التعرف*)، والمقتبسة من نيتشه: "في المرض يكمن الجواب عندما نميل إلى الشك بحقنا في القيام بالمهمات الملقاة علينا". فعن أي مرضٍ يتحدث سعيد ؟ وعن أي جوابٍ يبحث لهذا المرض الذي يفترض فيه انه يحمل الجواب ؟

تعود هذه الدراسة إلى مطلع السبعينات، وهي تعبر بحق عن التزامه "المبكر بقضايا الأمة العربية والإسلامية"، ولكنها من جهة أخرى ليست بالمنزلة التي تجعلها ترتقي إلى وصفها بأنها "تتضمن جميع أفكار ادوارد سعيد الرئيسية التي تجسمت في كتبه اللاحقة وتبلورت فيها جملة وتفصيلاً"[i]، ففي هذا الحكم شيء من المبالغة، والدليل على ذلك أن صاحب هذا الحكم سيبدو أكثر حذراً وموضوعية في كتاب آخر، حينما يقول عن هذه الدراسة:" يمكن النظر إليها بوصفها مدخلاً لأغلب كتاباته اللاحقة، خصوصاً في ميدان الثقافة والتراث والهوية، إذ تضم إشارات مكثفة إلى أفكاره التي توسع كثيراً في مناقشتها لاحقاً"[ii]. ونحن نميل إلى الحكم الأخير، أي إلى النظر إليها بوصفها تضم "إشارات مكثفة" أكثر من النظر إليها على أنها تتضمن "جميع أفكاره". فهي تحمل في مضامينها (بعض) ما سيقوله سعيد لاحقاً، وخاصة في كتابه الأشهر الاستشراق، كما أنها تكشف عن بعض جوانب فكره، في تلك الفترة المبكرة من حياته. فاهتمامه المبكر بالواقع العربي آنذاك، بعد أن كان بعيداً عنه، يقف خلفه العديد من الأسباب، أهمها: حرب ١٩٦٧بين العرب وإسرائيل، ففي تلك الفترة كان سعيد يعيش في أمريكا، وبفعل هذا الحرب وتداعياتها وجد نفسه وسط محيط معاد لكل ما هو عربي، ومساند لإسرائيل بصورة تامة، الآمر الذي نتج عنه أن أصبح غريباً ومستهدفاً، بعد أن كان أكاديمياً محترماً، وبدئ يواجه تناقض موقعه، إذ لم يعد بمقدوره امتلاك هويتين[iii]، فهو من جهة عربي فلسطيني الأصل والنشأة ومن جهة أخرى مواطن أمريكي يعيش في أكثر البلدان مساندة لمن كان سبباً في نفيه عن أرضه. لقد كان هذا الحدث بداية عودته القوية إلى العالم العربي، إلى

التفاعل معه والكتابة عن قضاياه العامة والخاصة، وما هذه الدراسة إن هي إلا تحليل عام لطبيعة الواقع العربي آنذاك وتشخيص لبعض أزماته و"أمراضه" كما يحلو لسعيد أن يقول. فكلمات وعبارات مثل: "أرضنا"، "ثقافتنا"، "تاريخنا"، "مصيرنا الجماعي كشعب"، وأكثر من ذلك الدراسة برمتها، تعبر أيما تعبير عن عودته إلى تلك الهوية، وذلك الواقع. هذا المعنى يتضح بقوة في هذه الدراسة، كما يتضح في تناوله لإشكالية العلاقة بين الغرب والشرق، وما الاستشراق ومسألة فلسطين وتغطية الإسلام..... إن هي إلا مؤلفات تتناول هذه الإشكالية التي عبر عن ملامحها، بشكل مكثف وليس تفصيلي، في دراسته سالفة الذكر، والتي يبدو فيها، ومن مطلعها متشائماً وناقداً للواقع العربي، ذلك الواقع المليء بالفوضى والتشتت. والسؤال الرئيسي الذي يرمي الإجابة عليه في دراسته هذه يطرحه بالشكل التالي:"ما هو الضعف العام الذي يعتري المجتمع العربي والثقافة العربية.... والذي أبقانا على ما نحن عليه ؟"[iv].

إن أول ما يلفت النظر في هذا السؤال هو انه سؤال النهضة العربية برمتها، ذلك السؤال الذي يقول: لماذا تأخر العرب وتقدم الأوروبيين ... لكنه مطروح بألفاظ مختلفة تركز على مناحي الضعف في المجتمع العربي، من دون أن يعني ذلك أن السؤال لا ينطلق من ذات الهاجس، هاجس التأخر والضعف، الذي أصبح صفة ملازمة لهذا المجتمع، والمطلوب الآن هو تحليل أسباب هذا الضعف، وهو ما يفعله سعيد الذي نقرأ في تحليله نفّساً نهضوياً يجعله ينتمي – ولو نسبياً – إلى سلالة المفكرين العرب الذين بحثوا في مشكلة المجتمعات العربية والمتمثلة تحديداً بتأخرها قياساً بالدول الأوروبية المتقدمة. وهل يمكن لباحث عربي يكتب عن واقعه ويفلت من تردي هذا الواقع ولا يطرح بالتالي سؤال: الضعف والتأخر الذي أصاب المجتمع العربي ؟

تدور دراسة سعيد حول هذا السؤال، وأجابته عنه تنطلق من تحليله للكيفية التي تتشكل بها الهوية الثقافية لمجتمع ما، إذ يرى أن تكوين المجتمع لنفسه يعود لفعلين أساسيين من أفعال أدراك الذات، الأول: خارجي يتمثل في التفاعل بين المجتمع كوحدة ثقافية وبين العالم الخارجي، والثاني: داخلي يتمثل في التفاعل بين الوحدة الثقافية ككل وبين عناصرها المكونة لها. ومن جدل هذين العاملين تتشكل

الهوية بقليل أو كثير من التماسك. وبالنسبة إلى العامل الخارجي وآثره على الهوية العربية، فانه يبدأ مع حملة نابليون على مصر (١٧٩٨).... تلك الحملة التي كانت عبارة عن صدام مع الغرب، مع سياسته وعلومه وثقافته، فكان من نتاجها أن الذهن العربي الحديث تكون بصورة جماعية بفعل هذه المجابهة بين العرب والغرب، وان الحيوية التي يعيشها المجتمع العربي اليوم إنما هي نتيجة لهذين العاملين. غير أن هذه الحيوية لا تنفي وجود (تشوش) وعدم وضوح يعيشه هذا المجتمع، وهو تشوش مصدره أهداف لم تتحقق، وهوية اجتماعية سياسية ثقافية لم يكتمل تكوينها بعد، والاهم أن ما يعانيه العرب هو نمط وجودهم الهلامي في هذا العالم[٧]، والذي هو نتيجة للتباين الذي بقي قائماً منذ مطلع عصر النهضة وحتى الآن، على صعيد الوعي والموقف، إزاء ثقافتنا وثقافة الآخر، انه تباين بين عالمين: الأول متأخر، والثاني متقدم. فالأول يعيش على رصيد تراثي ضخم يضغط على وعيه ويصعب عليه أن لم يكن من المستحيل الانفصال عنه، ففي هذا التراث يكمن الصالح والطالح، والعربي أن ترك تراثه سيعيش ممزقاً بلا هوية، وهو ما يجتنبه معظمهم. أما الثاني فهو يضغط على وعي الأول بعلومه وثقافته وتقنيته، فيجد الثاني نفسه إزاء حضارة مغرية الابتعاد عنها ومحاربتها يعني الخروج من التاريخ. غير أن ما حصل مع العرب بفعل هذه الثنائية أما هويتنا أو الآخر أما تر اثنا وأما حداثة الغرب، لم ينتهي بهم إلى معالجة حاسمة تختار احد الحلول المقترحة، تلك الحلول التي لم تجد طريقها إلى التطبيق، بل بقيت في معظمها كلمات على ورق لا أكثر.

لقد افرز هذا الصدام مع الغرب صنفين من المفكرين العرب، الأول: منفتح على الغرب، والثاني: منغلق عليه وأكثر التفاتاً نحو الداخل، وأكثر ما يسلط عليه سعيد الضوء هو مواقف بعض المفكرين العرب، التي وان بدت ناقدة للتغلغل الغربي في الشرق العربي إلا إنها اعتمدت "بصورة لا واعية على أساليب التفكير والقيم المستمدة بكاملها من الثقافة الامبريالية"، والمفارقة الأكبر في نقد هؤلاء للثقافة الغربية تكمن في أن "الناقد الاجتماعي الذي يلوم الغرب على سياسته الامبريالية وغزوه الثقافي للعرب هو في معظم الأحيان الشخص نفسه الذي يلوم العرب لأنهم غير متقدمين على الطريقة الغربية"، أي أن ثمة تناقض في الموقف من هذه الثقافة،

وخاصة لدى أولئك الذين عاشوا في ظل التأثير الغربي، فأصبحوا يتبنون "قيم الثقافة الامبريالية تبنياً أعمى حتى كأنها قد انتقلت بالوراثة من أب إلى أبن، مندفع، لكنه غير واع تماماً"[vi]. ولا يقتصر مثل هذا الموقف على بعض المفكرين العرب، ممن يناهضون الغرب وسياسته الامبريالية، ولكن من دون قطع الصلة بقيمه ومنجزاته الثقافية، بل انه يجد ترجمته في نموذج طالما عُرف بنقده للامبريالية الغربية، ذلك هو فرانز فانون (١٩٢٥- ١٩٦١)، الذي يستعير أسلحته النقدية من منجزات الثقافة الأوروبية كالفرويدية أو الماركسية ليهاجم بها الاستعمار الأوروبي. يقول سعيد: "الهجوم نفسه وسيلة تحريضية قيمة. لكن أن يستعير المحرض أسلحته من عدوه ويكون مديناً له..... فإنه بذلك يؤخر مهمة أساسية وهي تحديد المنابع الوطنية التي ينبغي البدء بها لمهاجمة الاستعمار الأوروبي ثم الانطلاق منها لخلق مجتمع وطني أصيل"[vii]. ورغم أن سعيد لا يحدد لنا هذه المنابع، ولا يقول لنا أين تكمن بالتحديد، إلا أننا نعتقد انه يشير إلى ما هو صالح ونافع في الثقافة الوطنية، ذلك الذي نحتاج إلى تشخيصه أولاً، وتنميته ثانياً، بدلاً من اتخاذ الثقافة الغربية دوماً وأبداً مرجعاً سلطوياً، ففي ذلك أضرار كبيرة على الثقافة والمجتمع.

إن هذا التقليد للثقافة الغربية التي وجدت طريقها بسهولة إلى العالم العربي يفسره خاصية الهشاشة في الثقافة العربية، تلك الخاصية التي جعلتها سهلة الغزو الاختراق. فالمقارنة بين الثقافة الغربية (الغازية) والثقافة العربية (المغزوة) تبّين أن السمة الأبرز في الثقافة الأولى منذ مطلع عصر النهضة الأوروبي تمثلت في المغامرة العدوانية الهائلة لاكتشاف العالم والإنسان، فهذه الثقافة وان تعرضت لجراح عميقة أحدثتها الاكتشافات العلمية الكبرى (كوبرنيكوس، دارون، فرويد)، إلا إنها تمكنت من خلق هوية متماسكة قادرة على مواجهة التحديات التي كشفت عنها، وهو ما ميزها عن الثقافات الأخرى، فجاءت مرحلة أخرى تمثلت في غزو هذه الثقافة للثقافات الأخرى، كالثقافة العربية، التي كانت سمتها الأبرز العجز النسبي على التحرك والعجز الأكبر في طاقتها على الصراع الثقافي الداخلي، وهو ما جعلها عرضة للاستكشاف والغزو[viii].

ولـم تقتصـر نتـائج هـذا المخـاض الـذي عاشـته الثقافـة الغربيـة، فـأفرز تلـك الاكتشـافات وهـذا الغـزو، علـى ذلـك فقـط، بـل أن هـذه الاكتشـافات العلميـة وظفـت لإخضاع الإنسان غير الأوروبي. فمن ناحية علمية لم يكن في اكتشاف كوبرنيكوس أو دارون أو فرويد ما يشير إلى تفوق البيض وراثياً على غيرهم.... هكذا حور مبدأ البقـاء للأنسـب لتبريـر اضـطهاد السـود فـي القـرن التاسـع عشـر.... ومـن ناحيـة اقتصـادية رأى الغـرب فـي العـرب منبعـاً ينبغـي أن يُسـتهلك.... ومـن ناحيـة ثقافيـة وسـيكولوجية نُشـئوا كـي يكونـون الشـريك الضـعيف الـذي يقتصـر دوره علـى تقليـد المظاهر السطحية التي تعرضها له الثقافة الغربية[ix].

هـذه الإشـارة المكثفـة عـن توظيـف العلـوم لإخضـاع غيـر الأوروبيـين سـتجد تفصـيلها فـي كتـاب (الاستشـراق)، حيـث سـيّبين سـعيد هنـاك كيـف أن علـوم كــ (البايلوجيا والانثروبولوجيا واللغة وعلم النفس) قد لعبت دوراً مهماً في تقسيم البشر إلى أجناس وألوان وعقليات ودعمت التعارض والاختلاف بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس، مانحة التفوق دائماً إلى الجنس الأبيض[x]. وهكذا لعبت هذه العلوم دوراً بـالغ الأهميـة فـي تعزيـز المفـاهيم النمطيـة حـول الشـرق، وهـي المفـاهيم التـي كانـت الثقافـة الاستشـراقية ممثلـة بالقصـص وأدب الـرحلات ....الـخ، قـد أشـاعتها، لتـأتي العلوم بعد ذلك لتعزيزها والبرهنة عليها علمياً، وكل ذلك بغية رفع الجنس الأوروبـي إلـى موقـع السيادة علـى الأجنـاس غيـر الأوروبيـة، أنهـا السـيادة التـي تمنحـه سـلطة الدراسة والتحكم بكل ما هو شرقي.

وإذا كانت الثقافة العربية قد تفاعلت مع الثقافة الغربية، فان السمة الرئيسة لهذا التفاعل انـه كـان "سطحياً"، وهنـاك جملـة أسباب تقف خلف هذا التفاعل السطحي، أهمها: أن العرب اقتصروا في تفاعلهم هذا على نقل الظاهر وما يسهل إدراكه. يقول سـعيد:"أن يـتعلم العـرب منـهم كـان يعنـي أن يفعلـوا مـثلهم، أن يقلـدوهم". لكـن مـا لـم يسـتوعبه العربـي فـي تفاعلـه هـذا هـو "مـا خفـي عنـه أو مـا ظـل وراء السـطح الـذي قلـده"[xi]. وهـذا المعنـى الـذي هـو احـد مظـاهر ضـعف العـرب هـو مـا يرمـي سـعيد إلـى بيانـه، إذ انـه يؤكـد عليـه فـي مواضـع عـدة مـن دراسـته هـذه وغيرهـا مـن الدراسـات، بوصفه دليلاً على مدى انتصار السطحية التي تظهر بقوة في الاقتصـاد الاستهلاكي

للبضائع الغربية في البلدان العربية، وكذلك في المؤسسات التعليمية التي لا زالت تحاكي جامعات القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا، حيث يزدهر التلقين ويندر البحث المستقل مما أدى إلى فساد العقول لفرط ما حشر فيها من قوالب يزعم أنها حديثة وهي القوالب التي تحررت منها أوروبا منذ قرنين[xii]، ويظهر أيضاً في الاستنساخ المباشر لبعض الكتاب الغربيين في العالم العربي كـ فوكو وغرامشي، حيث "لا توجد محاولة لتحويل الأفكار إلى شيء ذي صلة بالعالم العربي"، وفي ذلك دلالة على أننا "ما نزال تحت تأثير الغرب، من موقع اعتبرته على الدوام دونياً وتتلمُذياً"[xiii]. هكذا نبدو في علاقتنا مع الغرب أخذ الأشياء جاهزة أما الطرق والوسائل التي تنتج هذه الأشياء، أكانت مادية أم ثقافية، وكيفية تحويلها إلى شيء ذا صلة بحياتنا، فلا معرفة لنا بها. وهذا التحذير القصد منه بيان أن الأخذ بمنتجات الغرب، لا يعني أننا أصبحنا متقدمين وحديثين، لأن هذه الاستعارة لها مساؤها التي تنعكس على وعينا حينما نمليه بتلك المنتجات، الأمر الذي ينتج عنه عدم تميز ثقافتنا عن الثقافة الغازية. ذلك انه حينما تصبح الثقافة الغربية هي المرجع السلطوي بالنسبة إلى المجتمع العربي فان الأثر الصادر عن هكذا مرجع يجعل كل ما ينتجه المجتمع العربي "منقولاً أو من الدرجة الثانية، مشوباً وغير أصيل". أما اثر ذلك على الإنسان العربي فان سعيد يُصيغ بدقة طبيعة ذلك الأثر النفسي الذي ينتجه هذا المرجع عليه، أن هذا الإنسان يصبح "شخص مغترب لا يحس أنه متأصل في هذه الثقافة، أو تلك"[xiv]، أي أن العرب يصبحون بفعل سلطة هذا المرجع لا هم هذا (هويتهم) ولا هم ذاك (الغرب) . وهذا احد أسباب عدم وضوح هويتهم وضعفها.

إن أشارة سعيد المتعلقة باغتراب الفرد العربي لعدم تأصله في ثقافته أو في ثقافة الغرب، لا تغني عن القول أن دراسته لم تسلك ما هو سائد في الثقافة العربية، أما الحداثة وأما التراث، أو التوفيق بينهما. ذلك خيار ابعد ما يكون عن معالجته هذه. انه كمن يفتح لنا طريقاً، أو كمن يشير إلى مسكوت عنه ولا مفكر فيه بحاجة إلى التنقيب فيه كي نستدرك ما فاتنا ما جعلنا ضعيفين عاجزين، وفي النهاية متأخرين، لأننا لازلنا سطحيين تقليدين، لا زلنا لا نفرق بين ظاهر الشيء وباطنه،

فنأخذ الظاهر دون معرف الباطن، نستهلك الأشياء الجاهزة دون أن نصنعها دون أن نعرف العلم الذي يقف خلفها.

وإذا كان سعيد يستقي مصطلح الغزو الثقافي والمقارنة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية من المتداول والشائع في الثقافة العربية، فانه لا يأتي مأتى بعض الباحثين العرب إلى موضوعه، إنه يرمي إلى هدف غير هدفهم، فهو لا يُبجل ثقافة ما ويدين ثقافة أخرى، وهي حالة شائعة وسائدة في الثقافة العربية المعاصرة، لأنه كما يبدو من خطابه مدرك تماماً من عدم جدوى هذه المفاضلة والانتصار لطرف ضداً من الطرف الآخر... ومن ثم فهو اقرب ما يكون لمن يمارس نقداً مزدوجاً لكلا الثقافتين: الغربية في بعدها المهيمن والطارد لكل ثقافة أخرى والعربية في سمتها الأبرز الضعف والسطحية.... وخاصة الأخيرة التي هي أصل تحليله ومدار نقده، انه يريد أن يقول لنا: أن العالم الغربي تبدو هويته أكثر قوة، بفعل تماسكها وقدرتها على مواجهة التحديات، أنها هوية السمة المميزة فيها هي: القوة والهيمنة، أما العالم العربي فتبدو هويته ضعيفة ساكنة، الآمر الذي جعلها عرضة للغزو الثقافي الغربي.

أما نمط المحاكاة الذي أنتجته الثقافة الغربية وقلده العرب، بوصفه النمط الأفضل لنقل المعرفة، فانه لم يدم طويلاً، ذلك أن هذه الثقافة قد أنتجت نمطاً آخر من المعرفة يتسم بالميل إلى "مناقضة المحاكاة، إلى اللاعقلانية والرمزية..... ويبلغ ذروته في أعمال ماركس ونيتشه وفرويد وهي الأعمال التي تقوم على أساس أن المظاهر ليست كل شيء. وقد أدخل هذا التقليد في الثقافة مفهوم اللامعقول والخرافي ... وما لا يُرى من حياة الإنسان.... ما الدليل.... على وجود هذا التقليد في ثقافتنا المعاصرة ؟ لا دليل إطلاقاً ؟"[xv].

ورغم أن سعيد لا يعطي اسماً لهذا النمط الجديد من المعرفة، إلا أننا نرى انه يقصد ما أصبح يعرف بـ (ما بعد الحداثة)، وهو تيار فلسفي جوهر بنيته انه قام على إعادة النظر في مقولات الحداثة. فإذا كانت الحداثة قد أفرزت شعار بارز من شعاراتها إلا وهو العقلانية، القادرة على تفسير كل شيء انطلاقاً من مبدأ الثقة المطلقة بالعقل، فان هذه الحداثة ما لبث أن أُعيد النظر فيها، في مقولاتها وشعاراتها وخاصة العقل، فكان من نتاج إعادة النظر هذه بيان أن هناك دائماً ما لا يُرى وغير

المفكر فيه، وان للامعقول والخرافي لا زال سائداً، وانه إلى جانب ذلك من منتجات العقل. والمهم أن هذا النمط من المعرفة يدل على ما في الثقافة الغربية من طاقة وقدرة على إعادة قراءة نفسها. هكذا تبدو الثقافة الغربية تزخر بالحياة والخصوبة والفاعلية، تزخر بالنقد ونقد النقد، أما الثقافة العربية فهي لم تشهد مثل هذا الحراك ولم تعش مثل هذه المراجعة، بل لم تشهد سوى التقليد والمحاكاة لثقافة الآخر، وهو تقليد اتسم بالسطحية، في حين أن المطلوب معرفة تطال أعماق هذا العلم والثقافة إذا ما أردنا أن لا نكون سطحيين مقلدين واستهلاكيين. ودليل هذه السطحية يجد ترجمته مرة أخرى في المقارنة التي تطحن فيها دراسة سعيد وتدور حولها، وهو أسلوب انتهجه معظم الباحثين العرب لبيان الفرق والاختلاف بين ما عليه العرب والمسلمون وما عليه غيرهم. ويتبّين هذا الأسلوب أكثر في حديثه عن لحظة مهمة ومفصلية في الثقافة الأوروبية، وهي لحظة فرويد وأثره على هذه الثقافة. فالأخير هو احد حججه لبيان مدى حيوية الثقافة الأوروبية وفاعليتها مقارنة بالثقافة العربية التي تتسم بالسطحية والجمود. يرى مؤسس التحليل النفسي "أن المدنية تكبت في الإنسان الغرائز الجنسية واللاعقلانية، ولكنها في الوقت نفسه ضرورية لاستمرار الإنسان ككائن مميز". يعلق سعيد على تشخيص فرويد هذا للعلاقة بين الإنسان والمدنية التي ينتمي إليها بأن "هذا التناقض الجذري لم يدخل الشرق لأنه لا ينقل بسهولة. إنه ثور ية شديدة العمق لأنه يتطلب منا أن نعتقد في وقت واحد ... بما هو خفي وما هو ظاهر، بنظام قهري ظاهر ومكتسبات قوى العقل تحت ذلك النظام". و جوهر ما يرمي سعيد الوصول إليه من هذا العرض لفكرة فرويد هو مساءلة الثقافة العربية، إذ يقول: "وهنا علينا أن نسأل إن كنا نجد في الثقافة العربية أو ما يكتب عنها ما يشبه هذا الموقف وما إذا كان هناك وجود لأية صورة ديناميكية للعقل في الكتابات العربية أو المجتمع العربي. أن الجواب عن هذه الأسئلة كلها فيما اعرف ينبغي أن يكون بالنفي. ودليلي واضح جداً. فعندما يتكلم أي ناقد عربي.... عن أمر اض المجتمع العربي.... فإنه يستشهد للدلالة عليها بأن العرب يعيشون في عالم بلا نظام، عالم قبلي ينتمي إلى العصور الوسطى.... وبأن العرب عاجزون عن التخطيط أو التصميم.... وفوق ذلك فإن هؤلاء النقاد يحثون العرب على استدراك هذه الفضائل

دون أن يقترحوا شيئاً –باستثناء إلحاحهم على تقليد البلدان المتقدمة أو استيراد الخبراء الغربيين –بحيث تبين اقتراحاتهم كيفية تحقيق هذا التغير ألعجائبي. وليس هذا ما نفتقده في كتابات نقادنا المعاصرين. إنهم لا يشيرون إلى أية منابع فكرية في المجتمع تستحق أن يضحّى من أجلها وأن تكتشف وتدرس. وباختصار، لا يقولون لنا ما هو فكرنا وماذا يمكن أن يصير"[xvi].

مرة ثانية نجد سعيد يشدد على عدم إشارة النقاد إلى أية "منابع فكرية في المجتمع". ولكننا لا نرى ما يراه، لأنه أين سنضع دعاة العودة إلى التراث في الثقافة العربية ؟ فهؤ لاء يشيرون إلى منابع فكرية محددة في المجتمع، وبغض النظر عن مدى راهنية هذا المنبع وفائدته، أكان صالحاً لإنقاذنا من تأخرنا أم لا، فان هناك إشارات وهناك حديث، وما كتابات الأفغاني ومحمد عبده وسواهم إن هي إلا مثال على نقاد يشيرون إلى "منابع محددة". وإذا كان سعيد يجيب عن سؤال ما هو فكرنا: "السطحية والتقليد"، فهو لا يقول لنا :"ماذا يمكن أن يصير ؟". انه لا يطرح حلولاً مكتفياً بالنقد وطرح الأسئلة. وهو آمر عبر عنه بكل وضوح في قوله: "فكل ما لدي هو بضعة أسئلة وملاحظات وتأملات"[xvii].

أما اخذ سعيد على الفكر العربي انه "لم يعرف مثل هذا النقد"، فان ذلك لا يُعد عيباً أو نقصاً في هذا الفكر، ذلك أن نقده هذا يشبه دعوى بعض الحداثيين ممن يأخذون على من يصنفونهم بالتراثيين أنهم لا زالوا متأخرين في تفكيرهم، وكأن معيار تقدم الثقافة العربية هو معرفة الأحدث، وهو ما يفعله سعيد الذي ينتقد أقرانه من هذا المنظور. صحيح أنه حينما يتحدث عن فرويد، فانه يُريد من ذلك بيان حيوية الثقافة الغربية وفاعليتها، إلا أن مثال فكرة فرويد لا يرقى إلى جعل هذه الفكرة حجة لنقد الفكر العربي، لا لشيء سوى أنه لم يعرف مثل هذا النقد، فالسياق الثقافي الذي يتحدث فيه وعنه فرويد يختلف عن السياق الثقافي العربي، ذلك مجال له خصوصياته واشكالياته، وهي تختلف من دون شك عن خصوصيات وإشكاليات المجال الثقافي العربي.

كذلك نعتقد أن هذا المأخذ والانطلاق منه للحكم على النقاد العرب ممن إذا ما تحدثوا عن أمراض المجتمع العربي راحوا يقولون: أننا ننتمي إلى العصور

الوسطى.... وأننا عاجزون عن التخطيط والتنظيم.... حكم لا يخلو من تعسف في تطبيقه، على اعتبار أن هذه الأقوال دليل على غياب الحيوية في الثقافة العربية المعاصرة، وذلك بالقياس إلى ما ذهب إليه فرويد، فضلاً عن أن هذا المأخذ يُغيب الإشكالية الرئيسية في الثقافة العربية المعاصرة: إشكالية التأخر التي تدور حولها معظم مؤلفات النقاد العرب. فالأقوال التي يذهب إليها هؤلاء النقاد ويرى فيها سعيد دليلاً على غياب الحيوية في الثقافة العربية هي نتيجة أبحاث وليس الأبحاث في دقائقها وتفصيلاتها. مع التأكيد على أن هذه الأقوال لا تخلو من صحة. ولا عذر لسعيد إلا إذا فهمنا انه يقصد أولئك الذين اختاروا السهل المتاح في نقدهم، فراحوا يرددون هذه الأحكام الشائعة في كتابات معظم النقاد من دون بحث عميق في أسباب التأخر..... ولكننا حتى مع هذا العذر نرى أن قياس فكرة فرويد مع أقوال النقاد العرب يبقى قياس وتطبيق في غير محله. يضاف إلى ذلك انه إذا كان النقاد العرب قاطبة يقولون: أننا متأخرون، فهذا سعيد يقول نفس القول ؟ فالسؤال الرئيس الذي تدور حوله دراسته هو الضعف العام الذي يعتري المجتمع العربي.وا إذا كان سعيد يشخص أمراضاً يعاني منها المجتمع العربي، فإقرانه يشخصون أمراضاً أيضاً، وان اختلفت العلاجات المطروحة . فما معنى الحديث عن الضعف العام إن لم نكن أمام الحديث عن التأخر ؟ وا إذا كانت الكلمات تفهم بأضدادها فضد التأخر والضعف هو التقدم والقوة.... وهذا ما يطلبه سعيد ويرمي إليه، وان لم يقل ذلك صراحة.

أما العلاج الذي يطرحه سعيد لهذا المرض الذي أصابنا، مرض السطحية و التقليد، الذي أصبحنا بفعله ضعيفين متأخرين، فهو: "معرفة ذواتنا". أنها المعرفة التي تشكل جوهر دراسته، وخلاصة علاجه. والمعنى الذي يشدد عليه في معرفة الذات ويدعو إلى تطبيقه هو "فعل التعرف من جديد على ما كان معروفاً من قبل لكنه تعرف بطريقة جديدة تحدث بالضرورة الصدمة النفسية التي يحدثها الاكتشاف". لذلك كانت هذه المعرفة لديه "ضرورية ضرورة الألوان للأعمى"[xviii]. لكن ما العمل إذا كان العرب قد عزفوا عن هذه المعرفة، وهو ما يبدو سعيد متأسفاً له اشد الأسف ! انه يحذرنا من القادم إذا ما لم نعد النظر المرة تلو المرة في واقعنا، في ذواتنا، في علاقتنا مع الغرب. ونحن نقرأ في دعوته هذه إنذاراً ونبوءة من واقع اشد فوضى

واضطراباً من ذلك الواقع الذي كتب عنه في مطلع السبعينات، ولقد كان على حق في نبوءته هذه، فما يشهده العالم العربي اليوم مقارنة بما كان عليه في ذلك العقد، يبدو أكثر فوضى واضطراباً. هكذا يدعونا إلى أن نسلك طريقاً معرفياً قادراً على تخليصنا من أزماتنا، آو لا يعيش الإنسان أزماته حينما لا يعيد النظر في ذاته ؟ إنها دعوة إلى مراجعة ذواتنا وفحص هويتنا، فان لم ننجز هذه المهمة لن ينجزها عنا غيرنا، فالأخر يتعاطى معنا كموضوع يختبره ويفحصه، بل يستهلكه، وفي أسوء الأحوال يعيد صنعه أو أنتاجه كما يلائمه هو، وهو فقط، أما نحن فلا صوت لنا، في عالم عثر فيه الآخرون علينا ذات مرة، وليس ببعيد أنهم "وللمرة الثانية سيعثرون علينا. آنذاك سيبدو شعار مثل "الامبريالية" عقبة تافهة بالقياس إلى انقراضنا القومي"[xix]. وتحذير سعيد من اكتشاف الغرب لنا ثانية، هو ما حصل بالفعل، لا في (٢٠٠٣)[xx] كما قرأ أحد الباحثين هذا التحذير – والقراءة إشارة واضحة إلى احتلال العراق –وإنما في مطلع التسعينات، في حرب الخليج الثانية*، وذلك حينما عاد الغرب بكل ثقله، وما كان ذلك ليكون لولا أننا أضعنا فرصة التعرف على ذواتنا، وتشخيص أمراضنا، فأصبحنا مهددين بالانقراض بفعل قوة هوية الأخر وضعف هويتنا. أن فعل التعرف على الذات الذي هو نقيض عدم التعرف، تلك الصفة التي لازمت العربي، فبدا كمن اقسم بالإيمان الغليظة على عدم التعرف، هي رسالة سعيد في دراسته هذه، التي يظهر فيها متشائماً إلى أقصى حد من هشاشة الواقع العربي وترديه. لكنه في القادم من مؤلفاته سينتقل إلى مناقشة من نوع آخر، مناقشة تسلط الضوء وبقوة على الثقافة الغربية، وخاصة جانب الهيمنة فيها، ذلك الجانب الذي رمى إلى إخضاع الشرق بعد أن تحالفت الثقافة مع السلطة، المعرفة مع القوة، وهو ما سينشغل سعيد باستقصاء معناه، فضلاً عن تداعياته على الشرق، لاسيما العالم العربي والإسلامي، أي بيان كيف أن الثقافة وظفت لأغراض الهيمنة وتشويه الآخر، وأصبحت أداة بيد السلطة، وذلك هو موضوع الاستشراق ومسألة فلسطين وتغطية الإسلام ، فضلاً عن الثقافة والامبريالية.

المصادر والمراجع

* صدر كتاب إدوارد سعيد الأول (جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية) عام ١٩٦٦، وهو أطروحته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة هارفارد الأمريكية عام ١٩٦٤. ثم صدر له مقال بعنوان (صورة العرب) ضمن كتاب (المواجهة الإسرائيلية – العربية في حزيران ١٩٦٧: منظور عربي) عام ١٩٧٠. أما الدراسة التي نحن بصددها فقد نُشرت أول مرة في مجلة مواقف البيروتية عام (١٩٧٢)، أي في الفترة التي قضاها سعيد في الجامعة الأمريكية في بيروت بعد حصوله على إجازة دراسية من جامعة كولومبيا الأمريكية لمدة عام، ثم نُشرت في كتاب يحمل عنوان الدراسة ذاتها وعنوان دراسة أخرى لسعيد عن دار بدايات السورية عام (٢٠٠٨)، ونُشرت أيضاً ضمن مجموعة لقاءات ومقالات لسعيد في كتاب حمل عنوان: ادوارد سعيد مقالات وحوارات، تقديم وتحرير محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤. والكتاب الأخير هو ما سنحيل إليه في تحليلنا لهذه الدراسة.

[i] ادوارد سعيد: مقالات وحوارات، تقديم وتحرير محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص١٠.

[ii] محمد شاهين: ادوارد سعيد أسفار في عالم الثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٩.

[iii] بيل أشكروفت، بال أهلواليا: ادوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، نينوى للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٠، ص١١، ١٢.

[iv] ادوارد سعيد: مقالات وحوارات، تقديم وتحرير محمد شاهين، ص٢٨.

[v] المصدر نفسه، ص٣١، ٣٢، ٣٣.

[vi] المصدر نفسه، ص٣٤.

[vii] المصدر نفسه، ص٣٤، ٣٥.

[viii] المصدر نفسه، ص٣٦، ٣٧، ٣٨.

[ix] المصدر نفسه، ص٣٨، ٣٩.

[x] ينظر إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص٣٥٣ وما بعدها.

[xi] ادوارد سعيد: مقالات وحوارات، تقديم وتحرير محمد شاهين، ص٤٢.

[xii] المصدر نفسه، ص٤٢،٤٣. ينظر أيضاً، إدوارد سعيد:الاستشراق، ص٤٨٩ وما بعدها.

[xiii] ادوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٤٢.

[xiv] ادوارد سعيد: مقالات وحوارات، تقديم وتحرير محمد شاهين، ص٤٤.

[xv] المصدر نفسه، ص٤٤، ٤٥.

[xvi] المصدر نفسه، ص٤٦، ٤٧، ٤٨.

[xvii] المصدر نفسه، ص٢٨، ٢٩.

[xviii] المصدر نفسه، ص٥٤، ٥٦.

[xix] المصدر نفسه، ص٦٣.

[xx] المصدر نفسه، مقدمة محمد شاهين، ص١٤.

* نرى أن حرب الخليج الثانية أكثر دلالة على عودة الغرب إلى العالم العربي، كما أن هذا الحدث وما نتج عنه من تداعيات أكثر اتساقاً مع تحذير سعيد من أن اكتشاف الغرب لنا ثانية سيؤدي إلى انقراضنا القومي. وهذا ما حصل بالفعل إذ أن المشروع القومي العربي قد تعرض إلى ضربة قاضية بفعل احتلال العراق للكويت، وهي الضربة الثانية التي أدت إلى إنهاء هذا المشروع بعد هزيمة حزيران (١٩٦٧) التي أدت إلى تراجعه وصعود التيارات الإسلامية كبديل لهذا المشروع.

مُلخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة كتبها إدوارد سعيد في مطلع السبعينات. وأهم ما في هذه الدراسة أنها تحمل في مضامينها بعض ما سيقوله سعيد في عدد من مؤلفاته اللاحقة ولاسيما (الاستشراق)، أشهر مؤلفاته، كما أنها تكشف عن بعض جوانب فكره في تلك الفترة المبكرة من حياته.

يدور البحث حول سؤال رئيسي يطرحه سعيد له علاقة بالضعف العام الذي يعتري المجتمع العربي، كما يبّين موقفه من بعض المثقفين العرب وطريقة تعاملهم مع الغرب، فضلاً عن أن البحث يسلط الضوء على النقد المزدوج الذي يمارسه سعيد إزاء الثقافتين: الغربية في بعدها المهيمن والطارد لكل ثقافة أخرى، والعربية في سمتها الأبرز الضعف والسطحية، ويتناول أيضاً الأسباب التي تقف خلف هذا الضعف والتأخر، السمة الأبرز التي يعيشها العالم العربي مقارنة بالعالم الغربي. وكنظرائه من المفكرين العرب يطرح سعيد حلً لهذا التأخر، ولكنه هذه المرة مغاير تماماً لما هو مطروح في الثقافة العربية، بل وأكثر من ذلك أن هذا الحل لم يسلك ما هو سائد في الثقافة العربية من حلول مقترحة لمشكلة التأخر في العالم العربي. والبحث في النهاية هو تحليل مكثف لاهتمام سعيد المبكر بقضايا العالم العربي، وخاصة قضية التأخر في هذا العالم.

Abstract

This research deals with a study written by Edward Said in the beginning of seventies of last century . The importance of that study lies in that it contained what would be said by Said in his later writings , especially his most famous book "Orientalism" . In addition , it discovered some sides of his thought in that early period of his life .

The research concentrates on main question raised by Edward Said concerning general weakness in Arabic society and it stares his position of some Arab intellectuals and their treating ways with west . In addition , it focuses on double criticism of Said toward both cultures : western culture in its dominant and centrifugal dimension to all other cultures , and Arabic culture in its distinct features i.e. weakness and shallowness . The research studies the reasons of weakness and retardation` `` in Arabian society compared with western world .

Edward Said , like Arab thinkers , presents a resolution to the matter , but it is wholly different from other resolutions , that it is not similar the common resolutions for the problem of retardation in Arabic culture .

Finally , this research is a condensed analysis of Said's early interest in Arabian world issues , especially the issue of retardation .